

# الهدويّة<sup>١</sup>

## رُوحانيّة أرثوذكسيّة عَظيمة

ماري-إيلين كونجوردو<sup>٢</sup>؛ تموز-٢٠٠٢

نقلها عن الفرنسيّة: أيهم نقولا سعد<sup>٣</sup>؛ تموز-٢٠١٠

### ١. مقدّمة :

الهدويّة *hésychasme* هي حركة روحيّة في الكنيسة الشريقيّة، تتميز بشكل أساسي بتكرار اسم يسوع ؛ وهي تعود تاريخياً للقرون المسيحيّة الأولى، حيث اختصّت بشكل أساسي بالأقاليم الشريقيّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة : مصر، فلسطين، سوريا. عرّفت الهدويّة تجددًا رائعًا في القرن الرابع عشر، في قلب الإمبراطوريّة البيزنطيّة وجبل آثوس، محدثةً جدلاً حول شرعيّتها اللاهوتيّة، وانتهت بتبنيها كعقيدة رسميّة للأرثوذكسيّة. أصبحت تُمارس، بعد سقوط الإمبراطوريّة البيزنطيّة، بشكلٍ مخفيٍّ وسريٍّ بدايةً في الدّول الإسلاميّة ومن ثمّ ضمن الأديرة السلافيّة. أحدثت نشر مجموعة من النصوص عن الهدويّة، الفيلوكاليا، في نهاية القرن الثامن عشر انطلاقة جديدة لهذه الحركة الروحيّة، التي تتدفّق في أيامنا هذه على كنائس الغرب. لقد طلبنا من ماري-إيلين كونجوردو بأن تزوّدنا بمعلومات أوّليّة عن هذه الحركة الروحيّة.

تتضمّن كلمة هدويّة معنيّ مضاعفًا في الكنيسة البيزنطيّة، فهي تشير إمّا إلى حياة التوحّد، وبهذا المعنى تكون الهدويّة مرادفة لكلمة ناسك *ermite*، أو تشير إلى شكل من أشكال الصلاة الداخليّة (القلبيّة)، المستمرّة التي تقود المصلّي لإدراك وجود المسيح في داخله. حيث يترابط هذان المعنيان في المراجع. يكتب بناءً على ذلك القديس يوحنا السلميّ رئيس دير سيناء الذي هو حاليًا دير القديسة كاترين ، في القرن السادس، في سلّمه : «يُفضّل الرّاهب الفقير الذي يعيش حياة الشركة الرهبانيّة في دير *Cénobite* على الهدويّ شارداً

الفكر» (سَلَم، درجة ٢٧، ٥٩)، أي الرَّاهب بالغاً حياة الشركة في الدير قبالة الهدوئيّ ؛ لكنّه يكتب أيضاً : «الهدوئيّ هو ذاك الذي يقول : أنا أنام لكن قلبي يقظ» (درجة ٢٧، ١٨)، الذي يرّد الصلاة المستمرّة.

ندعو الهدوئيّة، بشكل أكثر عموميّة، تلك الحركة الروحيّة التي تعود لأصول رهبانيّة والتي، بالصلاة الداخليّة (القلبيّة)، تبحث عن الوجود المحسوس لله وبالتالي عن التقديس للمصلّ. اقتصرت الهدوئيّة بدايةً على النُساك وشاعت بعدئذٍ شيئاً فشيئاً ضمن الأديرة ومن ثمّ انتشرت في العالم ككلّ في بداية القرن الرابع عشر.

## ٢. الأفكار المهمّة في الصلاة الهدوئيّة

### • حفظ القلب :

تأتي كلمة هدوئيّة من الكلمة اليونانيّة *hēsychia* التي تستحضر الصمت والسكينة. يكتب يوحنا السلمي : «بداية الهدوئيّة هي في استقصاء كل ضجيج، لأنّ الضجيج يُعكّر سرائر النفس. ويكون كماها بعدم خوف أيّ اضطراب وبقاؤها عديمة التأثير» (درجة ٢٧، ٤) علينا لبلوغ هذه الحالة تجنّب أيّ فكر، الفكر - أو التفكير المنطقي - الغافل عن الله، حيث يستعمل الشيطان الأفكار ليقلق الرَّاهب ؛ يقود إذاً الرَّاهب المعركة ضدّ هذه الأفكار لاقتناء سلام القلب، السلام الداخلي. حسب يوحنا السلمي، «صديق الهدوئيّة هو ذاك الذي يكون دائماً بفكره في حالة يقظة، يتسلّح بالشجاعة ومتشدّد على باب قلبه ليقضي أو يُفلت العنان للأفكار التي تراوده.» (درجة ٢٧، ٣).

### • صلاة يسوع :

يمرّ الطريق باتجاه الهدوئيّة من خلال صلاة يسوع، حيث يتعلّق الأمر بصلاة فرديّة *monologique*، هذا يعني صلاة مركّبة من جملة قصيرة مكرّرة إلى ما لا نهاية، وهي تُوحّد في حين أنّ كثرة الكلام تُشثت. قال الأب مكاربوس مسبقاً، وهو متوحّد في صحراء مصر في القرن الرابع : «ليس من الضروري التثثت في الكلام ؛ فمن الكافي أن نرفع أيدينا ونقول : "يا رب، كما تشاء وكما تعلم، ارحم."» (حكّم آباء الصحراء). يصبح، قريباً جداً، اسم يسوع المركز لهذا التضرّع. يكتب دياذوك مطران فوتيسه في اليونان في القرن الخامس «تستوجب الرّوح منّا، عندما نُغلق جميع

مخارجها من خلال ذكر الله، عمل يُشيع بشكل كامل قدرتها على التمرين. يجب أن نعطيها إذاً "الرب يسوع" كشاغل وحيد للوصول بشكل كامل لهذا الهدف. « (c. 59).

تشكّل صلاة يسوع، منذ القرن السادس، جزءاً من معدّات وتجهيزات الرّاهب. «فكما يكتب يوحنا السّلمي، تسلّح بالصلاة واجلد أعداءك (الشياطين) باسم يسوع» (درجة ٢٠، ٧). فهي تصبح بالتدريج خاصيّة الهدويّة. كتب إيسيشيوس، وهو راهب في دير باتوس Batos بالقرب من سيناء: «لا تتوقفوا عن تجوال اسم يسوع في فسحات قلوبنا كالبرق الذي يومض في السماء معلناً قدوم المطر.» (c. 105, in Philocalie, I, p. 207).

#### • ثمار الهدويّة، رؤية النور غير المخلوق :

ينضمُّ لتجربة وخبرة حفظ القلب وصلاة يسوع، الروحانيّة الصوفيّة للنور غير المخلوق. فبالرغم من أنّه وُجِدَتْ لها آثار منذ آباء الصحراء إلا أنّها تتطوّر بشكل خاص في القرن الخامس ضمن مجموعة من النصوص التي أرجعها المؤرّخون إلى سمعان-مّا في بلاد ما بين النهرين، لكن من الذي قرأها من الرهبان البيزنطيين كعمل من أعمال مكاريوس - الذي ندعوه أيضاً وبهذا الصدد مكاريوس المتحل. يصف هذا الكاتب، في مواعظه الرّوحية، تجارب رؤية الله والنشوات الرّوحية. يصبح الإنسان المعطى هذه الرّوى بذاته مُستتيراً، كما في حالة موسى عندما نزل من جبل سيناء بالتحديد.

### ٣. المعالم الرّئيسية للهدويّة

#### • الهدويّة النّسكية :

ينقسم الجهد الرّوحي لرهبان الصحراء المصريّة منذ القرن الرابع بين الصلاة الداخليّة (القلبيّة) والنّسك سعياً للتناغم بين الاثنين. إلا أنّ انحراف مُهدّد سيحمّل الهدويّة مسبقاً شكّ اللاهوتيين : بعض الرهبان الذين ندعوهم بـ أوشيت euchites، المصلّون، الذين لا يطالبون بشيء آخر سوى الصلاة. أوصى الآباء بشدّة ضدّ هذه البدعة على العمل اليدوي الذي يرافق الصلاة وكلّ ذلك للسماح بمساعدة الفقراء فضلاً عن نفسه.

إنَّ التجربة الرُّوحِيَّة لآباء الصحراء مدوَّنة في نهاية القرن الرابع، يعرض واحد منهم وهو أوغريس البنطي بأسلوب تركيبي سياق الهدوئيّ: يجب أن يمر هذا بخطوات التُّسك الجسديَّة - الصِّيَام، السَّهر - ومن ثمَّ إلى نسك الأفكار - محاربة الكبرياء، الغضب، الحسد - لبلوغ الصلاة النقيَّة «علاقة عميقة مع الله» (في الصلاة، 3. c)، التي يجب أن تكون بدون صورة ولا خيال.

أصبحت هرطقة المصلين (الأوشيت)، في القرن الخامس، خطرة: ينتشر كلُّ تيارٍ طائفيٍّ تابع للمصلين ميساليان messaliens - وهي الترجمة السريانية من اليونانية لكلمة أوشيت euchites - في الأقاليم الشرفيَّة للإمبراطوريَّة. تستبعد عقيدتهم كل ما هو غير الصلاة أي الأسرار والحياة الكنسيَّة وتتألَّف من القول أنَّ المعموديَّة غير نافعة وأنَّه وحدها الصلاة المستمرَّة يمكن أن تطرد الشيطان الذي يقطن في كل إنسان منذ ولادته؛ يسبِّب رحيل الشيطان خيرة محسوسة للرُّوح القدس، الضمان الوحيد للخلاص. سُدان هذه البدعة من قبل مجمع أفسس في عام ٤٣١.

في الواقع، ليست بدعة المصلين إلا هامش طائفي لحركة روحيَّة أكثر أهميَّة، تلك التي يمثِّلها مكاروريوس المنتحل. تتأصَّل جذور هذه الحركة في سورياً وبلاد ما بين النهرين وقد تصدَّت لتجربة مذهب العقلائيَّة الروحيَّة الصرفة التي كانت في بذور نظريات أوغريس البنطي؛ يعطي ثانيَّة سمعان-مكاروريوس، إلى جانب الصلاة النقيَّة بدون صور وخيالات لأوغريس البنطي، مكاناً للعواطف لتذوُّق الله في ملء القلب.

سوف يُقضي لزمان طويل خطر بدعة المصلين وإدانتها الجذريَّة - التي تلقي الشك على كل اللذين يتكلَّمون عن الصلاة المستمرَّة وإدراك الله - الصلاة الهدوئيَّة عن المراكز البيزنطيَّة الكبرى، وسوف تحتمي الحركة في هوامش الامبراطوريَّة الأقل خشية من صواعق أرثوذكسيَّة متغطرسة أي:

- في سيناء، مع يوحنا السلمي الذي يَصِفُ الصلاة الهدوئيَّة - « يترقَّب الهرُّ الفأر؛ وترقَّب روح الهدوئي عريسها الرُّوحي» (الدرجة ٢٧، ٨) - وثمارها المحسوسة - «عندما تأتي النار لتسكن في القلب فإنَّها تبعث الصلاة؛ وعندما سُبِعَتْ الصلاة وستصعد إلى السماء ستزل بدورها ناراً في عليَّة العشاء السري للنفس» (الدرجة ٢٨، ٤٨)؛

- في فلسطين، مع الرَّاهب بارسانوف وتلميذه دوروتيه من غزَّة الذين يصرون على عدم الاكتران والثقة الكاملة بالله؛

- في سوريا، مع اسحق السوري وهو ناسك يصبح أسقفاً لنيوى ومن ثمَّ يعود ويصبح راهباً متوحداً وهو يُصرُّ على التحوُّل الذي تحدته الصلاة الهدويَّة : «أنَّ ينام المصلِّي أو أن يستيقظ فإنَّ الصلاة من الآن فصاعداً لن تغادر نفسه. أن يأكل، يشرب، ينام أو كل ما يفعله، وحتى في نومه العميق، فإنَّ عطر الصلاة يستيقظ بدون ألم في قلبه.» (أبحاث نسكيَّة، ٨٥). يعطي هذا التحوُّل للمصلِّي نظرة جديدة حول الكائنات والأشياء، نظرة شفقة شاملة تتضمَّن حتَّى الأفاعي. لكن منذ القرن السابع، عندما أصبحت هذه الهوامش البيزنطيَّة أراضٍ إسلاميَّة ، لن يُعبَّر عن الهدويَّة إلا بصوت خافت.

● سمعان اللاهوتيّ الحديث أو الهدويَّة في الدَّير :

يَجِدُ راهب خارج عن المألوف، في القرن العاشر في القسطنطينيَّة، وهو سمعان اللاهوتيّ الحديث المواضيع الرئيسيَّة الهدويَّة، لكن بدجها هذه المرَّة مع الحياة النسكيَّة. يوافق، مزوِّداً بتجارب صوفيَّة منذ حدائته، الحياة العامَّة والصلاة الداخليَّة (القلبيَّة) مؤكِّداً أنَّ القداسة لا تعتمد على نمط الحياة. طالبٌ بإمكانية ممارسة صلاة تأملية ومستمرة في الأديرة وعيش «في أيَّامنا أيضاً» تجربة مدركة ونيرة بالروح القدس.

● الباليولوج Paléologues أو الهدويَّة في الأماكن العامَّة :

توارت الهدويَّة من جديد، بعد هذا اللمعان الصُّوفي لسمعان اللاهوتيّ الحديث، كنهر باطنيّ محبوباً بواسطة الشكليَّات الرُّوحية المرافقة للذروة الرُّوحية للإمبراطوريَّة، التي ستنبعث ثانيةً في نهاية القرن الثامن بعد المحنة المخيفة التي تمثَّل بالنسبة للبيزنطيين، بين ١٢٠٤ و ١٢٦١، الاستيلاء على القسطنطينية من قبل الصليبيين والاحتلال اللاتينيّ.

يرتبط مع هذا الانبعاث بعض الأسماء مثل نيسيفور الهدويّ وهو ناسك في جبل آثوس يتوجّه إلى كل الذين يريدون أن يجتبروا حضرة الله في الصلاة ؛ وهو يعتبر واحداً من الأوائل الذين نصحوا بإدراج طريقة جسديَّة، إلى هذه الصلاة، قائمة على السيطرة على التنفُّس : «أنت أيضاً في سكون قلايتك، مستجمعاً فهمك وإدراكك، اجعلها (الصلاة) تدخل من الأنف حيث يلج النَّفس داخل القلب. ادفعها عنوةً لتستقرَّ وتمكث مع النَّفس الواج إلى القلب... عندما يوصلك إدراكك إلى هذه النقطة يجب ألا تتركه في الصمت والفتور وإنما قدِّم إليها ملكة العمل والتمرين المستمر على الصلاة : "أيها الرب يسوع المسيح، ارحمني" كي لا تتوقف أبداً عن ذكرها.» (حول الاعتدال، الفيوكاليا ٢، ص ٣٧٢).

يطوّر كاتب آخر من نفس العصر وهو سمعان المنتحل الطريقة الجسدِيّة بشكل أكثر تفصيلاً حيث سيفسح المجال ويسبب انتقادات لاذعة حين يقول : «ضع ذفك على صدرك، كن يَقْظاً لِنَفْسِكَ مع إدراكك وعيونك الحسّاسة ؛ احبس للحظة نَفْسَكَ إلى الوقت الذي يجد فيه إدراكك مكان القلب الذي يقطن فيه نَفْسُكَ بالكامل» (حول الأساليب الثلاثة للصلاة، الفيلوكاليا ٢، ص ٨١٥)، ستشبه انتقادات سيئة القصد هذا الأسلوب والعادة كتأمل السُرّة (في مركز البطن) كمكان للنفس حيث يشير مؤرّخون معاصرون، من جانبهم، إلى تقارب مدهش لهذه الطرائق مع اليوغا.

أصبح الراهب تيوليت من فيلادلفيا، من نفس العصر، أسقفاً يدرّس الصلاة الدّاخِلِيّة في التقليد الهدوئيّ النّقي في دير للرّاهبات في القسطنطينيّة : الهدوئيّة ليست حكراً على النّسّاك ولا على الرّجال. كل ذلك لم يكن إلاّ اختلاجات حيث شهِدَ القرن التالي ولادة الهدوئيّة مع شخصيّتين استثنائيّتين : غريغوريوس السّينائيّ وغريغوريوس بالاماس.

غريغوريوس السّينائيّ، مأسور من قِبَل الأتراك ومُساق كعبد إلى لاوديكية Laodicée ثمّ مُسترجع من قِبَل مسيحيّي البلد المحلّيين كونه يرثل جيّداً. مُحَرِّراً يسافر ويطلّع ويتدرّب على الصلاة الدّاخِلِيّة تدريجياً في قبرص، سيناء وفي كريت. يشكّل حوله تلاميذ بوصوله إلى جبل آثوس قبل ذهابه ليستقر في بلغاريا. يقوم تعليمه على ضرورة إيقاظ نعمة المعموديّة، غير مكترث بالهموم اليوميّة ؛ الأمر الذي يفتح طريقان : طريق النسك وهو طويل وشاق، وطريق الصلاة المستمرّة بشفاعة اسم يسوع وهذه الطريق سريعة لا يريد أن تكون حكراً فقط على الرهبان، حتى النّسّاك، بل سيدفع تلاميذه لينشروها حتّى أوساط العلمانيّين.

#### ٤. الجدلّ الهدوئيّ :

يبدأ في عام ١٣٣٧، راهب فيلسوف وهو برلعام من كالابريا، تحقيقاً حول الحركة التي بدأت بالانتشار في جبل آثوس حيث يرسم صورة هزليّة للرهبان الذين انصرفوا إلى هذا الشكل من الصلاة ونعتهم بـ «أومفالوبسيك» أيّ أولئك الذين نَفْسُهُم تكون في السُرّة. يرثدّ ويوجب غريغوريوس بالاماس، وهو راهب من جبل آثوس، بسلسلة من المقالات «للدفاع عن القديسين الهدوئيّين» : الثالوثيّين. يدافع عن جملة ما فيهم من إمكانيّة الوصول لرؤية النور الإلهيّ بعيونهم الجسدِيّة. فهو يكشف لِبَرِيّ نفسه بما أنّه متهّم بدعم وتأيد فكرة إمكانيّة رؤية الجّوهر الإلهيّ - أنّه هرطوقيّ - عن عقيدة سعتبر فيما بعد كأساس لاهوتيّ للهدوئيّة :

التمييز بين الجوهر الإلهي غير المدرك وبين قوى الله - النور، المجد - المتاحة للإنسان والتي هي اتجاهات لتقديسه.

مُقاضاً أمام مجمع القسطنطينية الكنسي عام ١٣٤١ بُرئ بالاماس من هذه الاتهامات بفضل انقلاب سياسي وضع على العرش الامبراطوري واحداً من مناصريهم. ستصبح فيما بعد العقيدة بالاماسية، أي ذلك الدفاع عن الهدوئية من قبل بالاماس، العقيدة الرسمية للكنيسة البيزنطية بالرغم من المقاومة التي ستستمر خلال عقود عديدة. سيسمح دعم الامبراطور البيزنطي لمناصري بالاماس بشغل كرسي بطريركية القسطنطينية حتى نهاية القرن وبشكل متناقض أن يطوّروا فيها ممارسة استقلال الكنيسة ضدّ تعديّات الامبراطور.

تستمرّ، بشكل موازٍ لهذه التطوّرات السياسية-الكنسية، الحركة الروحية الهدوئية بالانتشار راجحة الحلقات العلمانية من خلال وعظ تلاميذ غريغوريوس السينائي وكتابات الهدوئي العلماني نيكولاس كاسباسيلاس Nicolas Cabasilas.

تستعيد الهدوئية، بعد سقوط الامبراطورية البيزنطية عام ١٤٥٣، حياتها تحت الأرضية. وفي عام ١٧٨٢، أعطت النشرة في فينيسيا (البندقية)، من قبل نيقوديموس الآثوسي Nicodème l'Hagiorite من فيلوكاليا الآباء النساك وهي مجموعة من النصوص الروحية البيزنطية حول الصلاة الداخلية، وضوحاً إضافياً والذي سيتكلّم ويعبّر عنها بشكل أساسي في جبل آثوس وفي البلاد السلافية. ستشهد روايات سائح روسي، التي تقصّ رحلات إنسان بحثاً عن الصلاة المستمرة والذي يأخذ منها السرّ في هذه الفيلوكاليا، نجاحاً كبيراً. تُرجمت هذه الروايات إلى لغات غربية مختلفة وإلى الفرنسية منذ عام ١٩٢٨ بنفس الوقت مع انتشار القديسين الأرثوذكس التابعين لنفس التقليد الروحي، مثل سيرافيم ساروف في القرن التاسع عشر وسلوان الآثوسي في القرن العشرين الذين سيساهمون في نشر الهدوئية. ستغرق وتغيب الفيلوكاليا ضمن الأثر الذي يتركه السائح الروسي: إن نشر مقتطفات أو مختارات باللغة الفرنسية عام ١٩٥٣ تحت عنوان الفيلوكاليا الصغيرة للصلاة القلبية، سيُتبع بترجمة متكاملة للفيلوكاليا باللغة الإنجليزية ومن ثمّ إلى الفرنسية. إن كنوز الهدوئية البيزنطية هي في الوقت الحاضر متاحة لعدد كبير.

<sup>١</sup> راجع المقال الأصلي على الرابط التالي :

[http://www.clio.fr/BIBLIOTHEQUE/une\\_grande\\_spiritualite\\_orthodoxe\\_\\_l\\_hesychasme.asp](http://www.clio.fr/BIBLIOTHEQUE/une_grande_spiritualite_orthodoxe__l_hesychasme.asp)

<sup>٢</sup> مكلفة بالأبحاث في CNRS (Centre National de la Recherche Scientifique)

<sup>٣</sup> المترجم من رعية فطنا في ريف دمشق - سوريا. حائز على ماجستير في الهندسة المدنية من جامعة Lille في فرنسا.

Email : [aihamsaad@gmail.com](mailto:aihamsaad@gmail.com) ; P.O.Box : 3170, Damascus – Syria